فلسفة المدينة في رواية رجالي لمليكة مقدم ...من طقسية التحرّر ...إلى أبجدية التمرّد

The city's philosophy in a man's novel of Malika mokaddem from the ritual of liberation to the alphabet of rebellion

أوريدة عبود

جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)

البريد الالكتروني: abboudourida@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2019/12/31 تاريخ القبول:2020/01/22 تاريخ النشر: 2020/06/17

ملخص:

تتحدد واقعية الرواية المعاصرة و جماليتها وفقا لمجوعة من المعايير ولعلّ نظرتها إلى المدينة يعتبر من المقاييس المهمة، ذلك أن المدينة بوصفها ظاهرة مكانية خاضعة للتطور الزمني و تحوله، ركزت عليها الرواية المعاصرة و شحنتها برموز و أبعاد و دلالات فكرية معقدة. ومن هذا المنطلق يسعى بحثنا إلى قراءة رواية رجالي لمليكة مقدم ،التي اتخذت من فضاء المدينة مكونا مركزيا في صياغة الأحداث و تأثيث العوالم .فالمدينة في هذه الرواية ليست مجرد خريطة جغرافية بل إنها نتاج تراكمي للدلالة ، تتأسس عن طريق جملة من العلاقات المتبادلة بين الشخصيات و الأمكنة.

ظهرت المدينة في هذه الرواية معبرة عن رؤى و أفكار تجمع ما بين النفسي والاجتماعي ، وامتازت بتراوحها ما بين الخاص والعام حيث تتعلق الأولى بالذات الأنثوية والثانية زاحمت فيها الأنثى الرجل ،متجاوزة بذلك كل الأعراف والتقاليد المتعارف عليها في المجتمع. و تشير النتائج أن فلسفة المدينة في رواية رجالي تقوم على تدهور القيم وضياعها ،و على تفكك المعايير الاجتماعية واندثارها وسط هذا الجو المديني المشحون بالتهتك الأخلاقي والعبث الجرئ،الذي جاء كنتيجة لكثافة التمركز البشري و تباين أفراد المجتمع و اختلاف اتجاهاتهم وتعدد مشاربهم و ضعف الوازع الديني في نفوسهم..فتحررت المرأة من القيود وسطت على القيم جهارا تجاوزت حدود العبث و التحرر .

الكلمات المفتاحية:

المدينة،المجتمع،المرأة،الرواية،الواقع.

ABSTRACT :

The reality of the contemporary novel and its aesthetics are determined according to a set of criteria. Perhaps its view of the city is considered an important measure, because the city as a spatial phenomenon subject to the evolution of time and its transformation, focused on the contemporary novel and shipped with symbols, dimensions and complex intellectual connotations. From this standpoint, our research seeks to read a man's account of Malika mokaddem, which has taken from the city's space a central component in the formulation of events and the furnishing of worlds. Places.

The city appeared in this narration expressing the visions and ideas that combine between the psychological and social, and was distinguished by its difference between the private and the general, where the first related to the female self and the second in which the female contrived the man, transcending all the norms and traditions of them. The results indicate that the city's philosophy in a man's novel is based on the deterioration of values and their loss, and on the dissolution of social norms and their disappearance in this urban atmosphere charged with moral abuse and daring absurdity, which came as a result of the intensity of human concentration, the variation of members of society, their different attitudes, the multiplicity of their paths, and the weakness of religious strife In them, women freed themselves from restrictions and overturned values openly beyond the limits of futility and emancipation.

key words:City ;society ; woman ;novel ; reality.

مقدمة:

تُعَبِّرُ رواية" رجالي "عن مرحلة جديدة في مسيرة الرواية النسائية الجزائرية، وتكتسب هذه الرواية أهمية خاصة لكونها رواية سيرة الذاتية؛ التي تنهض على تقديم شكل سردي حديث تمّ بوعي المبدعة ودرايتها بجماليات الرواية وملامحها العصرية التي تعيد الكاتبة فيها تأليف ماضيها و سرد اعترافاتها. فهي اعترافات لها خصوصيتها ولونها وطعمها؛ اعترافات تمتد في الماضي، وتستمر إلى الحاضر، وفيها تطل الذات إطلالة زمنية ومكانية على مساحات بوحية أنثوية، وتمر بمحطات متنوعة، يتشابك فيها الماضي مع الحاضر من خلال بناء روائي متماسك بعيد عن التتابع الزمني والتسلسل المنطقي للأحداث محاولة إعادة اكتشافه وقرائته من جديد.

انطلقت الروائية مليكة مقدم من حياتها ومن صراعها المتواصل مع الواقع والوجود والطبيعة منذ أن كانت طفلة ،وهذا ما جعل أدبها ينعكس على أعمالها ويحمل دلالات ورموز تتماشى مع طبيعة الظرف الاجتماعي والتاريخي المراد التعبير عنه.

اتخذت رواية رجالي من فضاء المدينة مكونا مركزيا في صياغة الأحداث و .فالمدينة في هذه الرواية ليست مجرد خريطة جغرافية على حدّ تعبير "يوري لوتمان بل إنها نتاج تراكمي للدلالة ، تتأسس عن طريق جملة من العلاقات المتبادلة بين الشخصيات و الأمكنة .

1-1إشكالية البحث :

يطرح البحث إشكالية مفادها:

- ما هي الاستراتيجية التي تبنتها الرواية في اختيار فضاء المدينة؟
- هل أثّر فضاء المدينة على تحولات الشخصية؟
- ما هي أبعاد وعي الروائية بالمدينة ؟
- هل كل حضور للمدينة (بشار، العاصمة، باريس...)في الرواية بالضرورة حضور لنسيج من الدلالات؟
- باختصار لماذ ا تتموضع أحداث الرواية في مدينة بدل أخرى؟

1–2أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- إلى قراءة فضاء المدينة في رواية رجالي بما يحمله هذا الفضاء من ظواهر التحرر و العبث و اللامبالاة.
-إبراز أن الرواية السير االذاتية النسائية تعبر عن واقع المرأة المتفاعل مع رؤاها الإيديوجية.

1-3منهجية البحث:

يتوسل هذا البحث المنهج الاجتماعي كون **أن** الخطاب النسائي الجزائري عبّر دائما عن المعطيات الاجتماعية من خلال زوايا متعددة، حيث شكل الواقع الذي يسعى إلى نقله وتفسيره المرجعية الأساسية له، واختار الاهتمام بالمضمون واستيفائه من عمق المجتمع بمعالجة قضايا المرأة المتشعبة وموضوعاتها المرتبطة بمختلف السياقات.

2- حول علاقة المكان بالشخصيات:

لا يمكن الحديث عن المكان في الخطاب الروائي، بمنأى عن القوى التي تقيم فيه، لأنّ وجود المكان مرهون بتواجد الشّخصيات، فلا يشكّل معنى لمكان إلاّ حين يعاش ويدخل في أفق التّجارب الحياتية للمجتمعات البشرية. ويصير عنصرًا مهمًا في المنظومة الثّقافية، واشتغاله يفترض ممارسات متنوّعة على صعيد العلاقات الإنسانية.

وفي ضوء ذلك فإنّ المكان لا يكتسب دلالاته السّطحية والعميقة والرّمزية إلاّ حين يصبح مجالاً وحيّزًا للقوى الفاعلة بصراعاتها ورغباتها وأحداثها، بل بفاعليات الحياة والموت. وبدون ذلك لا يغدو للمكان قيمة في النّص المرهون بحضور الشّخصيات وأفعالها: « وحسب لوحة غريماس العاملية يعيش حالتي اتّصال وانفصال مع وعن موضوعه وكلا الفعلين الحدثين لا يتحقّقان إلاّ في حيّز مكاني، فحركة القوى الفاعلة وهي تمضي للاتّصال بموضوعاتها أو الانفصال عنها هي التي تنبئ القارئ المتلقّي بطبيعة الفضاء الذي يحتويها، فحينما نتابع حركة الشّخصيات ينشأ بصورة غير مباشرة إحساس بوجود المكان »(1).

فالشّخصية الروائية والمكان يتبادلان المعنى، وكلّ يأخذ هويّته من الآخر، وهذا التّرابط بين المكان والإنسان يدلّ على قوّة الحضور المكاني في الشّخصية، وفق أبعاده الوصفية، ومن خلال تحديد الملامح العامة لها وتمييزها من غيرها، حيث الأمكنة تنتج شخصياتها المتمايزة والمختلفة. و المكان عنصر فاعل في تحديد طبيعة الشخصية وملامحها، بحيث يمكن التّمييز بين شخصية وأخرى بناءً على المكان الذي تنتمي إليه، فالإنسان الرّيفي مثلاً يضجر من الأمكنة الضّيقة، وبالضّجيج الذي يميّز عالم المدينة، لأنّه اعتاد التّحرك في الأماكن المفتوحة.

عندما يعمل الروائي على تشكيل المكان الذي ستجرى فيه الأحداث يحرص على أن يكون بناؤه منسجمًا مع طبائع شخصياته على أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشّخصية والمكان الذي تعيش فيه أو البيئة التي تحيط بها. في هذه الحالة يصبح المكان قادرًا على كشف الحالة الشّعورية للشّخصية، وبناءً على هذا الأساس، سيساعدنا المكان على فهم الشّخصية، وهو بناء أو تقنية يتمّ إنشاؤها اعتمادًا على المميزات التي تطبع الشّخصيات. والمكان لا يظهر إلاّ من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه، والمنظور الذي تتّخذه هو الذي يحدّد دلالته ويحقّق له تماسكه الإيديولوجي.

ينشأ المكان في الرواية وفقًا لوجهات نظر متعدّدة: من الرّاوي لأنّه كائن مشخص في ضوء اللّغة التي يستعملها، والشّخصيات التي يحتويها المكان، وأخيرًا وجهة نظر القارئ التي تكون دقيقة ومميّزة. فهو بهذا شبكة من العلاقات، ويكون المكان منظمًا على غرار العناصر الأخرى في الرواية إنّه يؤثّر فيها، ويقوّي من حضورها كما يعبّر عن أغراض المؤلّف التي تكوّن جهازه المعارفي.

إنّ المكان الذي تقوم الرواية على تصويره له تفرّده الخاص، وله طبيعته الخاصة وواقعيته فهو مكان يحدّد جماليا ويؤسر في قبضة مجموعة من الكلمات لأنّه مكان مصاغ من ألفاظ لا من موجودات.

تتجلى أهمية المكان من خلال علاقته مع العناصر الروائية الأخرى فهو متلاحم معها "فالمكان الروائي لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد(...) و عدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي

الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد"[2]، فالمكان يجسد أحد أهم العوامل الأساسية في هيكلة البنية السردية للرواية، إذ يمثل الوعاء الذي يحوي الأحداث.

كما يقر النقد بأن تشخيص المكان في الرواية هو الذي يجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئا محتمل الوقوع، بمعنى يوهم بواقعيتها "إنه يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور أو الخشبة في المسرح، وطبيعي أن أي حدث لا يمكن أن يتصور وقوعه، إلا ضمن إطار مكاني معين لذلك فالروائي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني غير أن درجة هذا التأطير وقيمته تختلفان من رواية إلى أخرى".[3] .فالأماكن في الرواية تخلق فضاء شبيه بالفضاء الواقعي، وتعمل على دمج الحكي المحتمل. تحتاج الرواية إلى مكان من أجل رسم حركة الشخصيات، كما تحتاج أيضا إلى "نقطة انطلاق في الزمن ونقطة اندماج في المكان(...) و الثانية تمثل حركة الشخصيات في المكان أي أن الهجرة أو الرحلة مثلا لا يأخذ دلالته في الرواية إلا بمدى ابتعاد إحدى الشخصيات عن موقع معين أو تحركها بين موقعين".[4]

يسهم المكان إذا في خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائما تابعا أو سلبيا، فالموقف من المكان متأت من قيمته وما يثيره من أحاسيس ومشاعر إذ يترك أثره على نفس الإنسان سواء بالألفة أو العدوانية، وقد يتجاوز الأثر النفسي بحيث توجد بعض الأماكن محملة بدلالات فكرية تعمل على إكمال المعنى في الرواية وفي هذا يقول حميد الحمداني أنّ:"إسقاط الحالة الفكرية أو النفسية على المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المألوف كديكور أو كوسيط يؤطر الأحداث إنه يتحول في هذه الحالة إلى محاور حقيقي ويقتحم عالم السرد محررا نفسه من أغلال الوصف" [5]، ما يعني أن المكان عنصر لا غنى عنه في العمل الأدبي فهو أهم المحاور الروائية المؤثرة في إبراز فكرة الكاتب وتحليل شخصياته من الناحية النفسية.

تختلف الأماكن في الروايات والأعمال الإبداعية حسب طبيعة الموضوع المتناول، إذ لا يمكن للرواية أن تقع أحداثها في مكان واحد وفي هذا الصدد يقول ميتشال بورتو:"وبحسب معرفتي لا وجود للرواية تجري جميع حوادثها في مكان واحد منفرد، وإذا ما بدا أن الرواية تجري في مكان واحد نقلناها أو تنقلنا إلى أماكن أخرى"[6]، وهذا التعدد في الأمكنة ينتج من انتقال الشخصية الرئيسية عبر أماكن متباينة، وهو الأمر الذي نجده في رواية "رجالي" لمليكة مقدم أين بدأت الروائية تمردها من عمق الصحراء إلى شوارع باريس ومنبيليه لتطوف فيما بعد بنصف دول العالم.

3-في قراءة الرواية:

ما تزال الرواية النسائية الجزائرية تفاجئنا بجرأتها في الإفصاح عن مواقف الفرد الجزائري في مواجهته للواقع الحالي، و الواقع المنصرم الذي يحمله الجيل الجديد من الكتاب كل المسؤولية عن الحالة التي وصلها المجتمع و الفرد و الفكر. ولا تزال تفاجئنا بالثراء و الجرأة و التنوع، و قد سجلت الرواية النسائية حضورا لافتا و قويا في الساحة الثقافية العربية مؤخرا يتصف بالجرأة في معالجة مواضيع حساسة، كانت تعتبر الى يوم قريب طابوها محرما لا ينبغي التفكير حتى في الاقتراب منه.

جاءت رواية "رجالي " مرآة عاكسة لهذا الواقع و معبرة عنه بشكل أدبي مشوق، يحكي كيف أصبح التحرر من القيود رغبة جامحة من أجل الخروج عن التقاليد و العادات و محاولة الانسجام مع العالم الذي وجدت نفسها غارقة فيه رغما عنها بينه و بين أحلامها و مشاعرها التي تعمل على تكوين حالاتها الوجدانية من الحب

تجاه شخصيات مرت في تكوين الشخصية الإنسانية حيث تجد من جهة المرأة ملاذا رائعا للعب و التمتع معها، و من جهة أخرى مجالا إنسانيا مليئا بالأفكار و المشاعر الجميلة التي تعيد الثقة إلى نفس الإنسان المهزومة و المتناقضة، و لكن لا يوجد أكثر إيلاما ووجعا من تلك الأفكار التي تتضارب، مرة تهرب و مرة تتلاشى و تذهب، و يجرها النسيان، و تعود مرة أخرى لحظة سكون يعم على هذه النفس الضعيفة.

تحاول المرأة في كل مرة أن تتمرد رغم الضغوط و التقاليد لتكوّن لنفسها مكانا و كيانا تتباهى به ، لأن الطقوس و العادات سحقت وجودها و قضت عليه و قتلت فيها الرغبة في العيش و التمتع بالأنوثة الجميلة التي هي كمينة فيها، كل القيود و الأغلال شلّت قلب المرأة و كيانها، حيث الرفض و الخوف من المواجهة من جهة و البداوة من جهة أخرى عوائق خطيرة تقلل من شأنها و تجد اقترابها من مملكة الحب، ليصبح الاختلاس و سرقة المواقف التي ترفع من أنوثتها سيدا للموقف، لأنها في كل مرة تجد لنفسها مبررات و أسبابا للتمتع بمواقفها و أوقاتها، تحاول في الكثير من الأحيان تبرير أفعالها.

بحثت مليكة مقدم الكاتبة المثقلة بالهموم والأحزان، المعذبة بالحرمان والضياع، عن بعض فصول حكاياتها أو أطراف تلك الحكايات والمحطات الزمنية التي تحمل عبق ذكريات مستثمرة في التعبير عن تجاربها الذاتية ورؤاها الإنسانية جملة من التقنيات الفنية الروائية مثل: أسلوب الاسترجاع والحوار بنوعيه: الخارجي والداخلي وأسلوب التقطيع، والترجيعات

انطلقت الساردة من حياتها ومن صراعها المتواصل مع الواقع والوجود والطبيعة منذ أن كانت طفلة ،وهذا ما جعل أدبها ينعكس على أعمالها ويحمل دلالات ورموز تتماشى مع طبيعة الظرف الاجتماعي والتاريخي المراد التعبير عنه.

تبرز في رواية "رجالي" بصمات الأنثى المتمردة على الواقع المزري لمجتمع كئيب:"إنها مغامرة الاستكشاف و ارتياد دهاليز المحرمات، [7].نحن أمام نص روائي يتجاوز الحبكة الجمالية و الفنية للنص السردي، باتجاه سردية تتناول قضايا المسكوت عنه.اندفاع نحو المحرمات و تقديم تبريرات واهية نحو هذا الاندفاع من خلال فعل الاستذكار لدى الساردة.

استطاعت الساردة من خلال التجربة التي خاضتها في الصحراء أن تفضح سياسة المنع والقهر الممارس ضد المرأة، كما استطاعت أن تعرض ذلك التعارض الذي تمثله الصحراء بين كونها فضاء حرا وسجنا يتسع لمجتمع أبوي يمارس فيه منع النساء من ممارسة أدنى الحقوق.

فكل هذا الحرمان والتهميش والبؤس جعلها تثور ضد العائلة وضد الأعراف والتقاليد وتتوق إلى الحرية وتبحث عنها في فضاء المدينة أين تمارس تحررها و تمردها.

3/ المدينة:/ نحو ممارسة لطقوس التحرر

1.3 مدن الوطن-بشار ووهران:

لم تعد المدينة مكانا للأحداث بل أصبحت موضوعا خاصا "مع تنامي العوامل الداخلية والخارجية، فمن الناحية الاجتماعية تعد ذات كثافة سكانية تكون سببا في ظهور مظاهر كثيرة ومشكلات نفسية واجتماعيه. ومن ناحية وأخرى تعد المدينة ملتقى التيارات الفكرية والفلسفات العالمية.فالمدينة إذن هي

مجموعة من المسافات لها أبعادها الاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية". [8]إذ تمثل المدينة مكانا ذا تجمع سكاني تتميز بطابعها الحضاري وتوفرها على حاجيات الفرد المختلفة بحيث "أوجدها الناس لتكون في خدمتهم وعلى مستواهم، أوجدها لتساعدهم في العيش وتطمئنهم وتحميهم من المناوئ ومن أنفسهم" [9]، وللمدينة أثر كبير على حياة الشخصيات، فهي مكان يلجأ إليه الفرد لما توفر من ضروريات العيش الكريم.

إن ما يمنح المدينة صفة المدنية هو انفتاحها على الآخر، وقدرتها على اجتذابه، وقابليتها الاجتماعية – لا الجغرافية – على تمثل ما يفد إليها، وعلى احتضان من يفد إليها، بحيث يصبح الوافد المناسب جزءاً لا يتجزأ من التكوين الذاتي للمدينة. ولا بد من الإشارة إلى أن النقلات الحاسمة، والطفرات الكبرى في تاريخ مدينة ما، لا تحدث في معزل عن تغذية المدينة، ورفدها، وتطعيمها أيضاً، بأولئك القادمين إليها من خارج فضائها الجغرافي الضيق ، ومن خارج نسيجها السكاني القديم. فالمدينة التي تنغلق – أياً كان شكل الانغلاق- لا تحكم على نفسها بالتخلف والتحجر وفقد الصفة المدنية فقط ،بل تحكم على نفسها بدخول مرحلة الانقراض والانزواء في أعماق مقابر التاريخ.

ولابد من الإشارة أيضا إلى أن المدينة ليست بالمكان الجغرافي الساكن و لا بالمعالم الأثرية السامقة التي أنجزتها الحضارة الإنسانية، بل إنها كما يصفها ماكس ويبر **(Max – Weber):**(منظومة هندسية لها وظيفة اجتماعية واقتصادية ولها خصوصيتها[10] فهي مكان النشاطات الاجتماعية المتداخلة والاتصالات ومركز الخلق والإبداع الثقافي حيث تلتقي الفرص التي تهيئ ظروف التقدم.

ومع ما عرفته المدينة من نمو وتطور، أضحت حاضرة في الرواية المعاصرة بأحيائها العريقة والحديثة، بمقاهيها وشوارعها وحاراتها. وعرف المحور المديني في الرواية الجزائرية تحولات،لعل أهمها انتقاله من المركزية المحلية إلى المركزية الأجنبية الغربية إجمالا أو جمعة، فمقابل المدينة المحلية- العاصمة -غالبا- وما رسخته بصددها من معالم وعوالم ومسالك وتقاليد وعلاقات ومواجهات نهضت مدينة باريس بشكل خاص لتفتح أفقا جديدا أو مدارات طريفة و تجارب مختلفة و بطرق أداء متميزة.

اتّخذت رواية "رجالي"أسماء أمكنة محددة على خريطة الواقع، كبشار ووهران و مونبيليه ،و يتّخذ سرد تفاصيل المدينة ووفرة الأمكنة فيها صيغة الإتيان على ذكر بعض أمكنتها بأسمائها المعروفة، وكأن ذكر الاسم يغني عن بقية التفصيلات التي يمكن أن تسرد المكان مصوراً، أو تصوره عبر سردها، مع التذكير بأن إطلاق اسم ما، على مكان ما، يعني منحه قدراً من الأنسنة.

إن الفضاء المديني الأول في الرواية هو بشار، فالروائية تحدثت عن مدينة بشار المجاورة لمكان سكنها أين بدأت تمرداتها الأولى وانحرافها عن الدين والعادات والتقاليد، ففيها قامت بأول علاقة غرامية لها مع جميل الفتى الذي يكبرها بعامين أو ثلاثة ،رفيق رحلتها في الحافلة المدرسية والذي بادلته القيلة الأولى فتقول:"في أحد الأيام، حملتنا تنقلاتنا عبر بشار إلى أطراف القصر، ارتقينا، أنا وجميل التلة الهائلة قرب الوادي وبعد أن بلغنا التلة لاهثين أمسك جميل بيدي وجذبني برفق، ثم قبلني". [11] إلا أن هذه التجربة لم تكتمل بسبب طموح الساردة بالخروج من الصحراء بحثا عن التعليم الجامعي والحرية.

ومن مدينة بشار أين عاشت أولى تمرداتها إلى مدينة وهران أين اتسع هامش الحرية المتاحة لها، فمدينة وهران تمثل بالنسبة للكتابة الفضاء اللامتناهي من الأمنيات والأحلام الذي لا يقيده حكم أو عادة،

ولا يؤمن إلا بالانعتاق والطيران خارج السرب بعيدا عن القوانين والطقوس المفروضة، وفيها بلغت الساردة الذروة في عصيانها وتمرداتها إذ جمعتها علاقة مع "سعيد" أو "الرجل الأشقر كما تسميه والذي لم يستطع رغم حبه لها أن يخرج من ريقة التقاليد التي أعادته في النهاية إلى أصله وروح القبيلة، فقد كان سعيد سليل عائلة برجوازية جذبها إليه بنظراته التي رهنت البشرة لشهوة العاطفة لتبدأ حكاية الساردة الأولى مع الحب فتقول: "أحب هاتين العينين اللتين تتلكآن علي إنها مداعبة أولى تعيد للجسد مذاق الانفعال" [12].

فالساردة أحبت الشاب واللون الأخضر لعينيه مثلما أحبت جزائريا آخر والذي سيصبح صديقها المفضل. فهذان العاشقان استطاعا أن يجعلا الكاتبة تتصالح مع الجزائر إذ يقول:"يبعث هذان الحبيبان في نفسي السلام، يصالحاني مع الجزائر التي أمقتها منذ أمسية تعيسة في شهر نوفمبر، أتعلم مجددا أن أكون، أن أشعر بنفسي جزائرية" [13]، بحيث كان طبيعيا أن يحدث ما تريده الكاتبة إذ قامت بكسر التابوهات الاجتماعية والأعراف والتقاليد، فمارست الحب مع سعيد ومع رجال آخرين فتقول:"إننا في غرفتي بالسكن الجامعي يقول لي سعيد المرغوب والمضطرب "أحبك" وأحترمك لا يمكن أن أفعل بك هذا هو قصده من "هذا" مضاجعتي الكاملة" [14] فهي تعتبر ممارسة الحب نشوة و فرحة،"! الفرحة! أجل، أكثر من النشوة، الابتهاج بانعتاقي في ذلك المحظور الأكبر رغم النواهي العائلية والاجتماعية" [15]، فالفسق والخطيئة يجسدان حرية وجودها في هذا العالم.

فمدينة وهران تمثل مكان مواعيد وعلاقات مشبوهة وممارسات لا أخلاقية والتي صرحت بها الكاتبة قائلة :"كم من الفتيات يحملن وهنا عذاري" [16] فهذا يعنى أن فضاء المدينة هو فضاء للرذيلة فهي "من أكنة اللعنات الشيطانية". [17]وللمفارقة فإن طالبة الطب التي اعتادت أن تزود زميلاتها بأقراص منع الحمل اكتشفت ذات يوم أنها حبلى ما جعلها تجهض ما في أحشائها، وبعد الإجهاض هجرت الساردة سعيد كما هجرت حبا آخر دون وداع، وسافرت إلى فرنسا.

هكذا تمثل المدينة الوطن مكانا طاردا للبطلة يضيق بالشخصية، ويبرز فيها عامل قهر و تهميش يدفعها للرحيل إلى فضاءات المنفى. في حين تظهر مدينة الآخر مكانا للتحرر و العبث وموطنا للحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية، وهو إلى جانب هذا يمثل مكانا للتسامح ومنبعا للجمال والفن والاعتراف بالآخر.

2-3 مدن الآخر/ مدينة باريس نحو أبجدية التمرد:

إن المدن كالبشر فلكي تقوم العلاقة مع المدينة أية مدينة يجب أن يحس الإنسان بالطمأنينة، بالألفة بالحب وهذه تتولد نتيجة الإحساس أن هذه المدينة تعني له شيئا خاصا ولا يمكن أن تستبدل بأية مدينة أخرى،وهذا ما يعطي المدينة طعمها و ملامحها ربما هذا ما تجسده شفافية العلاقة بين "مليكة مقدم" ومدينة باريس، فقد صنعت صورتها وامتلكتها وسجلتها باسمه و استطاعت أن تحول المكان المحدد في باريس إلى رمز للتحرر و التهتك الأخلاقي .

تعتبر باريس مدينة ذات مساحات واسعة أحالت المؤلفة إلى الشعور النفسي المريح، وساعدتها على فتح فضاءات داخل الفضاء النفسي للشخصية، وذلك بالانتقال من حالة الضيق والفقر والحرمان إلى الإحساس بالأمان والحرية والانعتاق، فمدينة باريس تختلف عن مدينة وهران سواء على المستوى الطبوغرافي والديمغرافي والاجتماعي، كما تختلف أيضا في تأثيرها الإيجابي على الكاتبة باعتبارها مكانا مفتوحا يتوفر على

هامش كبير من الحرية التي كانت تبحث وتتوق إليها، إذ أصبح لها عشاق لمساء واحد فتقول :"أتخذ عشاقا لليلة واحدة أرفض أن أقابلهم ثانية(...) لا أريد سوى الشهوة واللذة، سوى بدايات العلاقة، أما الباقي فينوء علي ويحبطني ويضجرني" [18].

ففي هذه المدينة المعروفة باسم مدينة الحب والنور فتحت الساردة أبواب حبسها على مصاريعها فتقول:"يبلغ تحري الجنس وتفجيره الذروة، إنه هجوم مضاد للجسد الذي يرفض الفطام" [19] فمدينة باريس تمثل بالنسبة للكاتبة الفضاء اللامتناهي من الأمنيات والأحلام الذي لا يقيده حكم أو عادة ولا يؤمن إلا بالانعتاق والطيران خارج السرب بعيدا عن القوانين والطقوس المفروضة.

فبعد فشل حبها في وهران التقت في باريس بجان- لوي وهو رجل أجنبي درّس لسنتين في جامعة وهران ويملك مركبا شراعيا ،وبذلك تشعر الساردة بأنها حققت متعتين متعلقتين بالحرية أو بحاجتها إلى الرحيل، فالمتعة الأولى ناجمة من كونه أجنبيا وهذا ما أرادته منذ أن كانت صغيرة، والمتعة الثانية مرتبطة بحاجتها إلى الرحيل عبر البحر حيث يمكنها المركب الشراعي من تجاوز قيود اليابسة وقوانينها والوصول إلى ذروة المتعة الجسدية والتألق الروحي.

أخذت الساردة في فصلها المعنون "الفرنسي الذي طبخ لي" تحكي عن موعدها الغرامي الأول في مدينة باريس وما إشارتها إلى ذلك إلا تجسيد لوعيها بأن العمل الأدبي هو "الكشف عن الخفايا، وهدم المظاهر، وإفشاء الأسرار" [20] ، فالكاتبة من خلال سردها لأسرارها وسيرتها الذاتية قد كشفت أيضا عن خبايا هذه الأمكنة و فلسفتها.

3-3 مدينة مونبلييه/ الخيبة و الخيانة

انتقلت الساردة للعيش في مونبلييه مع جان –لوي بعد زواجها، أين كان يملك مركبا شراعيا ما سمح لهما بالإبحار متى ما أرادا ذلك ويستمتعان بالشمس والنور، غير أن انتقالهما من باريس أحزنها كثيرا، ما جعلها تدخل في حالة من التشرد واليأس والإحساس بالوحدة وهو الأمر الذي جعلها تتسكع لوحدها في الشوارع إذ تصرح قائلة:"كم من الوقت استمر تشردي الخائب عبر شواراع مونبيله"[21]، ففي مونبلييه تعرضت إلى الانكسار وابتعدت الهوة بينها وبين زوجها عند اكتشاف خيانته لها ، ما دفعها إلى الاستقالة من عملها في المستشفى وخوض تجربة الكتابة التي استولت على كيانها فتقول:"قدمت استقالتي، بدأت أكتب، وتحول يأسي إلى نشوة"[22].

وفي خطوة للمصالحة عرض عليها جان- لوي الإيجار بمركبه الشراعي لتتمكن الكتابة والاستمتاع بالرحلة البحرية إذ تقول: "حين يصحو الطقس في عرض البحر، أنصرف للكتابة، وينصرف جان-لوي للقراءة".[23]

ففي مونبلييه حققت شهرتها ككاتبة بعد انفصالها النهائي عن زوجها، وفيها عاشت سلسلة من تجارب الحب الناقصة لعل أبرزها تلك التي جمعتها مع الرسام الكندي لتستغني بعد ذلك عن حب الرجال،محاولة أن تثبت لنفسها في كل مرة أنها حرة وقادرة على مراقبة الآخرين وهم يندفعون نحوها، فيما تتمتع هي بنوع نادر من الخلاص العاطفي والقدرة على البتر والمضي قدما، إلا أن هاجس الطفولة والصحراء مازالا يلاحقانها، فمهما فعلت إلا أنّها لم تستطع منع ذاكرتها من استحضار صور طفولتها وذلك الحرمان العاطفي الذي

عاشته أين بدأت مليكة مقدم تمرداتها الأولى من عمق الصحراء إلى وهران ثم باريس ومونبليه لتطوف فيما بعد نصف دول العالم كإسبانيا واليونان، وتركيا إسلندا، تونس، صقلية....

4- الشوارع والطرقات/ تحدي الأنظمة الأخلاقية:

لا يمكن تصور مدن أو حتى أحياء دون طرقات وشوارع، فقد احتل الشارع في الرواية العربية مكانا بارزا: "وكانت له جمالياته المختلفة باعتباره مسارا وشريانا للمدينة"[24] و للشارع دوره العظيم إذ يعد من الأماكن الهامة في حياة المدن، و هو من العناصر البيئية الأكثر انفتاحا ضمن الأمكنة العامة المفتوحة.

فالشارع مكان تتواجد فيه جميع فئات المجتمع وهو معروف بكثرة السكان وحركتهم المستمرة، وقدمت الروائية الشوارع في رواية "رجالي" بصور كثيرة سواء في الجزائر أو المهجر، إذ تصف لنا حالة الشارع الجزائري الذي كانت فيه الغلبة للرجال دائما واحتلالهم له وهذا ناتج عن عدم المساواة بين المرأة و الرجل و التأليه الذي حظي به الأبناء دون البنات في المحيط الأسري ما أدى إلى إفساد طبعهم، فللرجال حق التجول في الشارع بكل حرية في حين أن المرأة إذا ما خرجت يجب ان تغض بصرها وأن لا ترفع رأسها تؤكد ذلك الروائية قائلة. "يجب أن تخجلي، يجب أن تخجلي، لا تنظري إلى الفتيان والرجال أخفضي رأسك في الشارع خصوصا لا تلتفتي. أتحدث عن الخجل و للحشمة..." [25] الأمر الذي جعل الساردة تتمرد على كل هذه التقاليد التي تنتقص من قيمة المرأة، لهذ تصر قائلة:"شدت هذه التمردات الأولى من عزيمتي، وهيأتني للمشاجرات، والعراك في الشوارع".[26]

تختلف الشوارع في فرنسا عن الشوارع الجزائر، ففي فرنسا يتمتع الفرد بحرية مطلقة، لا أحد يأبه بما يفعله الآخر فكل تراه يمارس في بلدها خفية تراه هناك يمارس في العلن وعلى مرأى الجميع .تقول "وافني جان-لوي إلى شارع أليزيا، مضينا عبر شوارع باريس متعانقي الأيدي، ما أجمل أن ينتزه الناس متعانقي الأيدي في مدينة. لم يسبق لي أن فعلت ذلك أبدا من قبل، تتعانق أيدينا، وتلك القامة القارعة تعانقني، تقبلني بعد كل عشرين خطوة، في الشارع، في وضح النهار على مرأى الجميع باريس ملك.... وفي شارع موفتار، أعشق أن أراقبه يطهو في الأمسيات النادرة التي لا نتناول فيها العشاء خارجا. إنها المرة الأولى التي يعدّ لي رجل الطعام. إنه مشهد إكزوتيكي وإيروتيكي، أتأمله ولا أقاوم الإغراء، نمارس الحب وقوفا وسط الروائح الفاغمة".[27]

فالشارع الباريسي لا يعد مكانا للحركة والتنقل والتنزه والترويج عن النفس فقط،إنما هو أيضا مكان لممارسة الحب والعناق والتعبير عن أحاسيسهم الجياشة، فالكاتبة تجري مقارنة بينه وبين الشارع الجزائري ،الذي تتعرض فيه المرأة للاعتقال إن لم يكن مرافقها من أحد المحارم فتقول:"لو تعلمون أن هناك رجال شرطة في الجزائر يعتقلوننا إذا كان الرجل الذي يرافقنا ليس أبا، ولا أخا، ولا زوجا، لو يعلمون أنهم يهددون ملف دعارة لنا لمجرد أننا خرجنا مع بعض الأصدقاء لتناول العشاء"[28] فالشوارع الجزائرية تحمل معنى الخيبة والفراغ والتقيد.

ذكرت الساردة أسماء لأماكن عدة عاشت فيها وتركت في نفسيتها أثرا كبيرا . فلكل مكان من هذه الأمكنة التي عاشت فيها فترة من حياتها شكلت جزءا مهما في تكوين وعيها، الذي مكنّها من استقلاليتها وإثبات ذاتها ككاتبة وكطبيبة.

تحدت الساردة كل الأنظمة الأخلاقية لتكشف عن مغامراتها الجنسية وحالة الشبق التي تعيشها مع الرجال، لم نألفها عند المرأة الكاتبة العربية و المسلمة. وذلك باعتمادها الوصف الدقيق لملامح الشخصية و التركيز على المظهر الخارجي في بناء الشخصيات. إنها المتمردة المتحررة، المستقلة بأفكارها و أفعالها خارج الحيز الذي ولدت و تربت فيه، حيز الجنوب حيث الصحراء و الرمال والتقاليد .لكن فضلت الإقامة في حيز الشمال حيث بحر مونبليه و ارتكاب المعاصي دون رقيب قريب أو رقيب بعيد. كاتبة واعية تعيش التمزق الداخلي، شقت طريقها نحو المواجهة، بتوظيف تقنيات سردية هامة، عززت فوضاها الحكائية بالكشف عن عبثيتها و استهتارها و تهتكها الأخلاقي في فضاء المدينة.

تنبني فلسفة المدينة في رواية رجالي على التمرد و الجنس التي تكشف المستور و تبوح عن المسكوت عنه بطلاقة، تنبجس منها ملامح ذات أنثوية متمردة على الجسد و السلطة و المجتمع، في سعي دؤوب نحو الانطلاق و التحرر من قيود المجتمع الذكوري العربي.

خاتمة:

استطاعت الساردة أن تبرز خصوصية المكان من خلال أفكارها المتضمنة للنص الروائي ، حيث حفرت في داخل وباطن النفس البشرية وفي ثنايا الذاكرة واختارت تفكيك العوالم الداخلية،واتجهت بكتابتها السردية من الخارج الاجتماعي،بل الإيديولوجي إلى الداخل المجهول والغائب ، فأسست كتابة سردية ذاتية.كما كان المكان عند المرأة الكاتبة نوعا من التعبير عن خصائصها التي ترغب في إيصالها بلغة تفيض بالمشاعر و الأحاسيس ، حتى أصبح المكان عبر تشكيله،مكانا نفسيا يعج بصوتها الواضح والصريح لمشاكلها وهمومها.و استنادا إلى ذلك توصلنا إلى النتائج الأتية:

- تولي مليكة مقدم اهتماما خاصا بالمدينة،فهي مكان أساسي،يمثل إطار القسم الأكبر من تجربتها الروائية ،و هذه العناية جعلت المدينة تسكن روايات الكاتبة، تهيمن على مساحات نصية شاسعة.و المتابعة الدقيقة لهذه الرواية تؤكد اهتمام الساردة بمدن الجزائر أو مدن فرنسا (باريس خاصة) و انصرافها إلى شوارعها و أحيائها و معالمها الحديثة،تسميها الساردة بأسمائها لتوهم القارئ بواقعيتها، و تقوي إحساسه بوجودها الواقعية الحديثة،و قد استطاعت الروائية أن تلم أشتات هذه الأمكنة في رواية "رجالي"التي كانت حقا رواية مدينة،تتبعت فيها الساردة تحولات المكان بين الماضي و الحاضر.

- ظهرت المدينة في هذه الرواية، معبرة عن رؤى وأفكار تجمع ما بين النفسي والاجتماعي ، وامتازت المدن بتراوحها ما بين الخاص والعام ، حيث تتعلق الأولى بالذات الأنثوية والثانية زاحمت فيها الأنثى الرجل ،متجاوزة بذلك كل الأعراف والتقاليد المتعارف عليها في المجتمع.وقد امتازت المدينة بتعدد وظائفها وصورها وملامحها وثراء دلالاتها، وكثافة رموزها في ذاكرتها، حققت ما كانت تحلم به في صغرها.

- المدينة في رواية "رجالي" ليست مجرد بيوت وأحياء و شوارع وطرقات ممتدة فحسب ،إنما هي أيضا مكان لتجربة الذات الساردة، و مجال لمنظومة من العلاقات المتشابكة و المعقدة،تكشف عن حالة التمزق و الضياع، التي تعانيها المرأة في ظل هيمنة سياسة التسلط ،ومن هنا،سعت الرواية إلى إبراز المدينة كموطن للحياة الكريمة و العدالة الاجتماعية و منبع للجمال و الفن و الاعتراف بحرية المرأة.وهي إلى جانب هذا تمثل مكانا يقوم على فلسفة التحرر و الاستهتار و التمرّد و العبث و اللامبالاة.

الهوامش:

[1] – خالد حسين حسين، الفضاء الرّوائي والعلاقات النّصية، مقال في مجلة المعرفة العدد 499، وزارة الثّقافة، دمشق 2001، ص 119

[2]- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2009، ص27.

[3]- حميد الحمداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء ، المغرب 2000، ص65.

[4]- عمر عاشور: البنية السردية عند الطيب صالح، دار هومة، 2010، ص30.

[5]- حميد الحمداني: بنية النص السردي، ص71.

[6]- ميشال بورتو، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد انطونيوس، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1982، ص61.

[7]- شرف الدين ماجدولين، الصورة السردية في الرواية و القصة و الفيلم، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الاختلاف، ط1 بيروت، الجزائر 1ط
2010،ص30

[8]- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي،عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن 2010، ص256.

[9]- مهد يعبيدي: جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا (حكاية بحار الدقل، المرفأ البعيد)، الهيئة العامة الدورية للكتاب، ط1، دمشق، 2011، ص96.

[10]- Max Weber –la ville-.paris. Oublier Montaigne.1974. p17

[11]- مليكة مقدم، *رواية رجالي*، (ترجمة نهلة بيضون)،دار الفارابي،دت ، بيروت، ، ص33-34.

[12]- الرواية، ص60 .

[13]- الرواية، ص61.

[14]- الرواية، ص63-64.

[15]- الرواية، ص64.

[16]- الرواية، ص66.

[17]- شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، 1994،بيروت، ص30.

[18]- الرواية، ص76،77.

[19]- الرواية، ص72.

[20]- ميشال بورتو: بحوث في الرواية الجديدة، ، ص48.

[21]- الرواية، ص96.

[22]- الرواية، ص146. .

[23]- الرواية، ص148.

[24]- شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، ص41.

[25]- الرواية، ص27.

[26]- الرواية، ص16.

[27]- الرواية، ص80-81.

[28]- الرواية، ص81-82.

قائمة المراجع:

- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2009.
- حميد الحمداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء ، المغرب 2000 .
- خالد حسين حسين، الفضاء الرّوائي والعلاقات النّصية، مقال في مجلة المعرفة العدد 499، وزارة الثّقافة، دمشق 2001
- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي،عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن 2010
- شرف الدين ماجدولين، الصورة السردية في الرواية و القصة و الفيلم، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الاختلاف، ط1 الجزائر.
- شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، 1994،بيروت.
- عمر عاشور: البنية السردية عند الطيب صالح، دار هومة، 2010
- مليكة مقدم، *رواية رجالي*، (ترجمة نهلة بيضون)،دار الفارابي،دت ، بيروت.
- مهد يعبيدي: جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا (حكاية بحار الدقل، المرفأ البعيد)، الهيئة العامة الدورية للكتاب، ط1، دمشق، 2011
- ميشال بورتو، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد انطونيوس، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1982.
- Max Weber –la ville-.paris. Oublier Montaigne.1974.